هجرة العرب من اليمن إلى شمال أفريقيا (القيروان)

أ. محمد بشير السويسي
كلية العلوم والآداب/ترهونة

من المعروف أن العرب قد عرفوا شمال إفريقيا قبل الإسلام بزمن طويل، يقول ابن خلدون: «أغزى ملوك اليمن شمال إفريقيا مرارًا، فاستكان لغلبهم السكان ودانوا بدينهم»[1]، وذكر ابن الكَلْبيّ أن حِمْيَر أبا القبائل اليمنية مَلَكَ المغرب مائة سنة، وأنه هو الذي بنى مدائنه، واتفق المؤرخون على أن إفريقش بن قيس بن صيفي، من التبابعة غزا المغرب، واختطّ به المدن العظيمة والمباني الشهيرة. ويقول الفيروآبادي: إن من يُسَمَّوْن البربر هم من ولد قَيْس عَيْلان، أو هم بطنان من حِمْيَر «صِنْهاجَة وكُتامَة» صاروا البَرْبَر أيّام فتح إفريقش إفريقيا[2].

1) كتاب العبر 106/6 و107.
2) القاموس المحيط مادة بربر 370/1 و371.

ويقرر ابن خلدون هذه المسألة، فيروي عن البَكْرِيّ أنه كان لمُضَر ولدان؛ إلياس وعَيْلان، فولَدَ عَيْلانُ: قيسًا ودَهْمان، وينتمي البربر إلى قَيْس بن عَيْلان بن مُضَر، وفي ذلك يقول الشاعر:

أَيُّهَا السائلُ عَنَّا أصْلُنا قَيْسُ عَيْلان بني العزِّ الأُوَلْ
إنَّ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلانَ هُمُ مَعْدنُ الحَقِّ على الخَيْرِ دَلَلْ
حَسْبُكَ البَرْبَرُ قَوْمِي إنَّهُمْ مَلَكُوا الأَرْضَ بأَطْرَافِ الأَسَلْ[3]

ثم وفد على الشمال الإفريقي من الغرب الأعداد الكثيرة قبيل الإسلام وبعده[4]، ووجد هؤلاء وأولئك حياة تختلف عن الحياة التي ألفُوها في جزيرتهم، فاندمجوا في السكان اندماجًا تامًّا، بالتزاوج وتبادل العادات، ووحدة الدين بعد الإسلام، فعرّبوا السكان الأصليين، وساروا معهم في طريق الحضارة التي أتى بها الإسلام، فأصبح الدم العربي والدين الإسلامي

3) العبر 95/6.
سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالي سنة 3500 ق.م، واستقروا هناك، ويرى النسّابة بالشمال الإفريقي أن «لُواتة» من حِمْيَر، و«هوارة» من كِنْدة من السكاسك، و«زناتة» من التبابعة، أو من العمالقة، و«غمارة» و«زوارة» و«مكلاتة» من حِمْيَر. تاريخ الفتح العربي ص 7، للشيخ الطاهر الزاوي.

4) استمر الدفع الإسلامي والهجرة إليها، وأهم هذه الهجرات هجرتان: إحداهما: في عهد الخليفة عثمان بن عفّان، واستمرت إلى عهد الوليد بن عبد الملك، حيث استطاع موسى بن نُصَيْر تثبيت أقدام المسلمين في الشمال الإفريقي كله، حتى المحيط الأطلسي. وثانيها: حدثت سنة 444هـ، حيث دفع الخليفة المنتصر الفاطمي عرب بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا، وكانوا أربعمائة ألفا، فاختلطوا بالسكان الأصليين اختلاطًا وثيقًا، فتصاهر العنصران وامتزجا، ونتج عن ذلك سلالة عربية تُكوّن الغالبية العظمى من سكان البلاد. المنهل العذب 121/1.

هما طابع السكان في تلك البقاع، ولم يصبح العرب بربرًا، كما لم يبق السكان الأصليون كما هم.

هذه الهجرات أسهمت في نشر العلوم والمعارف التي تلقوها من الجزيرة العربية، وممن وفد عليها من الصحابة في الفتوح الإسلامية، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبَيْر، وغيرهما ممن جاء بعدهما، كعقبة بن نافع، ورافع الأنصاري، وزهير بن قيس البَلَوِيّ، وغيرهم، وتوّج ذلك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فأرسل عشرة من التابعين، أشهر هؤلاء العشرة: عبد الله بن يزيد المَعافِري، وسعيد بن مسعود التُّجِيبي، وإسماعيل بن عُبَيْد الأنصاري، وعبد الرحمن بن رافع التَّنُوخِيّ، وموهب بن حَيّ المعافِريّ، وحيَّان بن أبي جَبْلة القُرَشِيّ، وبَكْر بن سوادة الجذامي، وبعثل بن عاهات بن عُمَيْر(5).

وعلى الرغم من كثرة الفتوحات الإسلامية على شمال إفريقيا – وخاصة القيروان – فلم يستقر الحكم الإسلامي استقرارًا تامًّا في تلك الفترة ليعم الهدوء والسكينة، وحيث إن طبيعة العلاقة بين البربر وبين عُقْبَة بن نافع – خاصة هي مثال للوجود الإسلامي في هذه المنطقة – كانت في مضمونها عدائية، إذ وَجَد هؤلاء في سياسة القائد العربي، وبخاصة حملته الأخيرة، تصحيحًا مركّزًا، استهدف إلغاء شخصيتهم القومية وصهرها في مجتمع جديد، تذوب فيه الكيانات، فهي أول حملة عربية في إفريقية تأخذ

---

5) دراسات في التاريخ الإسلامي، تأليف الدكتور محمود محمد زيادة، مطبعة دار التأليف، مصر، 1968-1969، ص 345 هامش 3.
فهم جميعًا من التابعين، لتعليم أهل البلاد تعاليم الإسلام.

ذلك الطابع المدروس والمنظم، بحيث إنها اعتمدت تحقيق هدفين متوازيين: الأول: هو الإطاحة بنفوذ البيزنطيين واقتلاع حاميتهم من السواحل الغربية في أوساط البربر، ودعوة قبائلهم إلى الإسلام[6].

ليست الأرقام التاريخية التي تحدد الأزمنة وتؤرخ لأحداثها بقادرة على فصل هذه الأحداث عن نتائجها، ولا عزل الأسباب عن مسبباتها، وذلك لأن الحدث الذي قد يقع في القرن الأول، قد يمتد تأثيره في لواحقه، لمدَّة قد تطول وقد تقصر، تبعًا لأهمّيته التي تحددها البصمات التي تركها هذا الحدث على صفحة الحياة السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الفكرية لأية أمة من الأمم، أو لأيّ شعب من الشعوب.

إن الحديث عن القيروان — بدون شك — يدفعنا إلى الحديث عمّا سبقه من الأزمنة، قد تبعد عنه، وقد تقترب منه، لأنها الوعاء الحاوي لمسببات الأحداث التي وجدت في تلك الفترة.

فللقرن الرابع الهجري من حديثي حصة الأسد، ولغيره حصة الثُّعَالة[7]، باعتبار أن بالسابق الأسباب وباللاحق النتائج، وبين تلك وهذه صلة لا يمكن أن يفصمها رقم مؤرخ، ولا تسلسل أحداث.

ويقولون: من امتلك «القَيْروان» فقد امتلك إفريقية و«المغرب»،

---

6) ومنا هنا كان انحراف عقبة جنوبًا إلى معاقل البربر، دون الاهتمام كثيرًا بإقليم طَنْجَة المسالم، فشخصية القائد الذي وُصِفَ بالعُنْف لم تكن بالضرورة سبب تلك القضية البربرية، بقدر ما كان لحملته المنظمة التي اخترقت — لأول مرة — الحواجر التاريخية التي أقامها البربر في وجه الفاتحين، فكانت تلك الثورة المعتادة التي دبّرها كُسَيْلة لضرب السياسة التوسعية.

7) ثُعالَة: اسم جنس للثعلب.

وافتتحت أمامه أبواب «بلاد الأندلس» و«بلدان غربي أوربا»، وقد انتبه إلى هذه الخاصية مؤنس بن يحيى المرادسي الهلالي، فقد دعا شيوخ بني هلال أثناء زحفهم على القيروان، فقال لهم: «ليس المبادرة عندي برأي. فقالوا: كيف تحب أن تصنع ؟ فأخذ بساطًا فبسطه، ثم قال لهم: مَنْ يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه ؟ فقالوا: لا نقدر على ذلك ! قال: فهكذا القيروان، خذوا شيئا فشيئا، حتى لا يبقى إلا القَيْروان، فخذوها حينئذ، فقالوا: إنك لشيخ العرب وأميرها، وأنت المُقَدَّم علينا، ولسنا نقطع أمرًا دونك»[8].

استمرت القيروان مركز إشعاع حضاري للعالم العربي والإسلامي، تشعّ الدرر على منطقة غربي إفريقية، ولم ينقص من روعة القيروان ولا من مركزها الحضاري وموقعها التاريخي، انتقال السلطة العُبَيْدية إلى مدينة «المَهْدِيّة» بعد تنصيرها[9].

بل بقيت القيروان دار السلام وعاصمة العلماء، في كل مجالات المعارف الإنسانية، والكوكب المنير الذي تُشَدّ إليه الرحال من مشارق الأرض إلى مغاربها، وكيف لا، وهي نَديدَةُ بغداد وقرطبة، بل أقدم منهما تمصيرًا، وأعرق منهما حضارة[10]، بينما كانت قُرْطبة في بداية هذه

8) الكامل لابن الأثير 567/9، بيروت، دار صادر، 1966.

9) تاريخ ابن خلدون 88/4، ط 1979.

10) كان القرنان الثالث والرابع هما القرنان اللذان تسابقت فيهما هذه العواصم الثلاثة على قيادة العالم الإسلامي وتنافست، سياسيا وحضاريا، وبخاصة بعد أن سُلِبَتْ من بني العباس سلطتهم، ولم يبق لهم منها إلا الدعاء على المنابر. الكامل لابن الأثير 272-263/8.

الخطوات، إذ لم يكن الأمن بها مستتبًّا، ولا الاستقرار بها متوفّرًا، لكثرة اختلافات أهلها، بسبب كثرة الطامعين منهم في نظام حكم، وألقاب الإمارة، والتنافس على السلطة، والدليل على ذلك تلك المساجلة الشعرية التي جرت بين شاعرين من شعراء القيروان[11]، عندما اقترح أحدهما على الآخر مغادرة القيروان إلى الأندلس أثناء الزحف الهلالي، وضعف الأمن

(11) الشاعران هما: ابن رَشيق، وابن شَرَف.
قال ابن رشيق:

مما يُبَغّضني في أرْضِ أندلسٍ ... سماع مُقْتدِرٍ فيها ومُعْتضِدِ
ألقابُ مملكَةٍ في غيرِ مَوْضِعِها ... كالهِرِّ يحكي انتفَاخًا صَوْلَةَ الأسَدِ

فأجاب ابن شَرَف:

إن تَرْمِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ ... قد جُبِلَ الطبعُ على بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ ما دُمتَ في دارِهِمْ ... وأرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرضِهِمْ

- ابن رشيق: هو أبو علي الحسن بن رَشيق، أديبٌ قَيْرواني، ولد بالمحمدية سنة 385 هـ، وقدم القيروان سنة 406هـ، وفيها نبغ واشتهر. من كتبه: «العُمْدة»، و«قراضة الذهب» وغيرها، توفي بمازَر سنة 463 هـ، على الأرجح. انظر وفيات الأعيان. وهناك من يرى أنه توفي بصقلية سنة 453. ظهر الإسلام 307/1.
قال ابن خلدون واصفًا كتاب «العمدة»: «وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقّها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». ظهر الإسلام 307/1.
- ابن شَرَف: هو محمد بن أبي سعيد بن شَرَف الأجدابي، أديب وشاعر، خرج من القيروان سنة 447 هـ عندما اشتد الضغط الهلالي عليها، حيث نزل الأندلس، له من الكتب: «أعلام الكلام»، و«أبكار الأفكار». توفي بالأندلس سنة 462هـ قبل ابن رشيق صاحبه. المعالم 193/3. وقد كانا صديقين، ثم دبّت بينهما الخصومة، فتساجلا في الأدب، كتلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمَذَاني.

بمدينة عُقْبة.

كان ابن رَشيق القيرواني صادقًا في وصفه للأوضاع السياسية بالأندلس، إذ لم تعرف قرطبة عزًّا وإشعاعًا عظيمًا أكثر مما عرفته في عهد عبد الرحمن الناصر (350هـ)[12]، وبانتهاء عهده رجعت إليها الانتفاضات والاختلافات، فمزّقتها الحروب، وأصبحت كلُّ مدينة دولة بذاتها عُرِفَ حكّامها بملوك الطوائف[13]، بينما كانت النهاية المحزنة والمأساة العميق جرحها في جسم الحضارة العربية الإسلامية باستيلاء الأسبان عليها[14].

ونفس المصير الذي انتهت إليه الأندلس انتهت إليه الدولة العباسية سنة 656هـ على يد هولاكو[15]، وهو نفس المصير الذي انتهت إليه القيروان قبلها على يد بني هلال سنة 449 هـ في عهد المعز بن باديس، الأمير الصنهاجي[16].

---

12) تاريخ ابن خلدون 4/46-46، والكامل 8/535.

13) الكامل لابن الأثير 9/284-292.

14) مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس ص 464-468، الدار البيضاء، 1967. وقد بكى الشعراء هذه المأساة بدموع تكاد تمزّق أوصال الأفئدة لسماعها، وتفتت حناياها لوقعها، من ذلك القصيدة النونية لابن الرندي، أُوردُ بعض أبياتها شاهدا على نهاية البداية لأول مصْر انشق عن الخلافة الإسلامية.

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ ... فلا يُغَرُّ بطيبِ العَيْشِ إنْسَانُ

هِيَ الأُمُورُ إذا عايَنْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أزْمانُ

أَيَا واقِعِينَ وَرَاءَ البَحْرِ في دَعَةٍ ... لَكُمْ بأَوْطَانِكُمُ عِزٌّ وسُلْطَانُ

أَجَاءَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ ... وَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَانُ

15) تاريخ التشريع الإسلامي ص 235، الطبعة 9.

16) المعالم 3/190، ط تونس. وقع خراب القيروان واستباحتها من طرف بني هلال في

إذا كانت بغداد سقطت تحت سنابك خيول أصحاب الملل والنِّحَل، وقرطبة قد صرعتها سيوف الطموحات الهوجاء، فإن القيروان ثبتت — على ارتعاشها — أمام الزحف الهلالي المبيَّت بليل.

والذي ساعد القيروان على هذا الصمود — في أصعب الظروف وأحلكها — صلابة أرضيّتها الاجتماعية، المجتمعة في النظرة الدينية في مجاليها العقائدي والعمليّ، لأن منهج أهلها هو المنهج السنّي عقيدة وسلوكًا وممارسة.

أريد أن أعطي نظرة صادقة وشاملة عن «القيروان» باعتبارها عاصمة إفريقية والمغرب، وانتشار الثقافة القائلة بأن كل حاضر هو نتيجة من نتائج الماضي، وكل مستقبل هو نتيجة من نتائج الحاضر، إذًا لكل حاضر ماضٍ، ولكل حاضر مستقبل.

فالقيروان كما سُمِّيَتْ[17]، ومدينة عُقْبة كما عُرِفَتْ[18]، وعاصمة الأغالبة كما نُعِتَتْ واشتهرت في عصرنا الحديث، وهي إلى ذلك عاصمة إفريقيا والمغرب، وثالثة الأقطار الإسلامية بناءً وتمصيرًا[19].

كانت القيروان أول مصر للمسلمين بإفريقية ومحط رحالهم، ونقطة انطلاقهم، وملجأهم في كَرِّهم وفَرِّهم، ومدِّهم وجَزْرهم منذ حركة

أول رمضان سنة 449 هـ.

17) اختُلف — في لغة العرب — في لفظ القيروان، فقيل: هي موقع الناس والجيش. وقيل: محط أثقال الجيش نفسه، والمعنى متقارب. معالم 1/8-9.

18) معالم 1/47.

19) قبلها الكوفة والبصرة، ومُصِّرَتَا في عهد عمر بن الخطّاب. سنة 10 هـ البصرة، وسنة 17 هـ الكوفة.

الفتوحات الأولى على يد عبد الله بن أبي سَرْح سنة 27 هـ، فيما يُعرَف بغزوة العبادلة السبعة، في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان ذي النُّورَيْن[20].

ومن نتائج هذه الفتوحات أنها عمّقت مبدأ وحدانية الله في الوجدان البربري، فطمأنت نفوس الأفارقة بعد خوفها، وأمنت المجموعات بعد ارتياعها وارتعابها، من الداخلين إفريقيتهم العذراء، مغازلين إياها أوّلاً، ثم ناهبين لخيراتها أخيرًا، بعد أن يستقر بهم المقام، ويلذ لهم العيش على أديمها، وتحت سمائها الصافية دومًا.

من القيروان فتحت الأندلس، وبها وفيها تحضّر البربر، ونزلوا من جبالهم بعد أن كانوا رافضين التعامل مع كل وافد عليهم[21]، جاعلين أصابعهم في آذانهم عن كل دعوة تصدر عنه، معرضين عن كل منهج دعاهم للأخذ به في حياتهم، ولقد شاهدت القيروانُ – منذ تأسيسها وإلى سنة 440 هـ[22] – أربعة أنواع من الحكم، اثنين منها يحكمانها باسم الخليفة، واثنين يحكمانها باسميهما. وهم:

1– عهد الولاة، الذي يبتدئ بمعاوية بن حُدَيْج سنة 34 هـ، وينتهي

20) طبقات علماء القيروان 15/1، والمعالم 33/1.
« القيروان » أسسها عقبة بن نافع سنة 50 هـ. قال ابن خلدون: « اختطّ عقبةُ القيروان، وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دُورُها ثلاثة آلاف إوستمائة باع، وكملت في خمس سنين واتسعت خطة المسلمين، ورسخ الدين ». وهي عاصمة إفريقية، وإفريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الأدنى والأوسط، فيشمل طرابلس وتونس والجزائر. ظهر الإسلام 295/1-296.

21) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، ص 26.

22) وهي السنة التي أبطل فيها المعز بن باديس الدعوة.

بعهد محمد بن مقاتل العكّي سنة 183 هـ، في عهد هارون الرشيد العباسي، وقد امتد العهد 149 سنة[23].

2- عهد الإمارة الأغلبية، الذي اشتمل على أحد عشر أميرًا، بدايته إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ، ونهايته أبو منصور زيادة الله الأغلبي سنة 296 هـ، وقد امتد هذا العهد 112 سنة[24].

3- عهد الدولة العُبَيْدِيّة، من 296 هـ، إلى سنة 440 هـ، بالنسبة إلى الوجود الفاطمي بإفريقية، حيث استقل العبيديون بحكمها طيلة هذه الفترة، وهو الانفصال الثالث الذي حدث في الأراضي التابعة للخلافة الإسلامية، بعد انفصال الأمويين بالأندلس، واستقلال الأدارسة بالمغرب[25].

4- عهد الدولة الزيرية، التي خَلَفَتْ العُبَيْديين، وكانت في فترتها الأولى (من 362 إلى 440)[26] ولاية تابعة للعبيديين، ثم استقلت عنهم بداية من 440 هـ، إلى أن حانت نهايتها في سنة 542 هـ، وطيلة هذه الفترة كان بنو زِيري يحكمون إفريقية باسمهم، مع الدعاء للخليفة بغداد على منابرهم.

إن سنة 440 هـ تمثل تاريخ انفصال إمارة بني زيري عن الدولة العبيدية بالقاهرة المغربية، وذلك عندما أبطل المُعِزّ بن باديس الصّنهاجي ذكر

23) تاريخ ابن خلدون 4/185-195.
24) المصدر السابق، 4/196-206.
25) الكامل لابن الأثير 8/49 وما بعدها.
26) المصدر السابق 8/566.

اسم المستنصر العلوي من على منابر مساجد المهدية والقيروان، وسائر حواضر إفريقية، وما عقب ذلك من رمْيِه بأعراب بني هلال من نتائج سياسية، التي كانت وليدة القرن الرابع، والتي لا يمكن فصلها عنها، مع عودة أهل السُّنّة إلى سالف عهدهم، بعد مدة بلغت 143 سنة قضوها رازحين تحت حكم الروافض من الشيعة، وإن استمرت مع ذلك الدولة الفاطمية في المشرق إلى سنة 567 هـ، وأصبح أكثر حكامها من الغلمان والموالي، ووقع لها مثل ما سوف يقع للدولة بني العبّاس بعد هذا التاريخ بحوالي مائة سنة.

وبما أن موضوع بحثي يتناول الأحداث التي سبقت انبعاث دولة العبيديين، ثم ما جَدَّ في فترتها الإفريقية، وما أعقبها بعد رحيلها إلى المشرق، إلى أن حدثت القطيعة بينها وبين ولاتها من بني زيري سنة 440 هـ[27].

لقد حققت نهاية القرن الثالث (296 هـ) حلمًا داعب جفون الأئمة من الطائفة الإسماعيلية من الفرق الشيعية إلى إفريقية، وهذا يجعل من الإنسان الباحث يتساءل، ما الذي دفع بهؤلاء الناس إلى الانتقال إلى إفريقية، على الرغم من جهلهم بها، وبطبيعة أهلها، بالإضافة إلى بُعْدها عن المسرح الحقيقي للأحداث، الذي شاهد ما لَحِقَ العلويين من قتلٍ وتشريد، التي كان لهم فيها دخلٌ كبير، مع أن تصرفاتهم المادية والعقائدية بلغت حدّ التطرّف عند بعض فرقهم، وكانت سببًا لنكباتهم المتتالية، ولكن بقدر ما لحق بهم من عذاب، وما لاقوه من نكبات، بقدر ما أنزلوه بغيرهم حينما صار الأمر بأيديهم، ولا أدل على ذلك مما لاقاه المجتمع السنّيّ بالقيروان عندما آل لهم

27) بذلك أكون مضطرًّا إلى التعرض إلى هذا كله، وخاصة أن من نترجم له قد ولد في بداية الدولة الفاطمية، ومات بعد رحيلها إلى مصر.

الأمر.

أما بخصوص نَسَبهم، الذي كثُرت الأقاويل – منذ القرن الثاني – حول صحته من عدمه[28]، والتي أيّدها بعض الفقهاء، سواء عن اقتناع، أو عن إكراه، ولكن من الواضح أن ظهور كلمتهم في مكة والمدينة أدلّ شيء على صحة نسبهم، وأمّا من يجعل نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعموا القدح وغيره، فكفاه إثمًا وسَفهًا[29].

وأترك القول فيه لغيري في هذا الموضع من ذوي الاختصاص، لأنه ليس بموضوع لنا، ونتعداه إلى ما هو أهم، وهي الأحداث التي جدّت بسبب حملهم هذا النسب، الذي دفعهم بدوره إلى المطالبة بأمر كانوا يعتقدون أنهم أولى الناس به، والذي ما ظفروا به إلى على أديم أرض إفريقية والمغرب.

بعد مقتل سيدنا علي بن أبي طالب خرج العلويون على السلطة الحاكمة، وكذلك قُتل أبناء الخليفة الرابع؛ الحسن مسمومًا، والحسين مطعونًا في واقعة كَرْبلاء المشهورة، وتواصلت مسيرة العذاب، حيث نشبت الحرب بين «زَيْد»، وبين يوسف بن عُمَر الثَّقَفيّ وَالي العراق من قِبَل هشام بن عبد الملك الحاكم الأموي، وانتهت هذه الثورة بمقتل «زيد»، ولكن تذكر كتب التاريخ أن جماعة من الشيعة جاؤوا إلى زيد أثناء المعركة، وسألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر، حيث قالوا له: إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تحدِّثنا برأيك في أبي بكر وعمر، اللَّذَيْن ظلما جدك علي بن أبي طالب، فقال: إني لا أقول فيهما إلا خيرًا. ففارقوه، فقال لهم:

28) معالم الإيمان 150/3، وتاريخ ابن خلدون 32/4.
29) تاريخ ابن خلدون 31/4.

رفضتموني[30]. ومن يومها سُمّوا رافضة، ثم تطوّر حتى أصبح يطلق على كل صاحب نِحْلة متطرِّفٌ في نِحْلَته.

أما من بقي مع «زيد» فهم المعروفون بالزيدية[31]، وحينما ضعفت الدولة الأموية، واختل نظام توازنها السياسي، وأصبح ليس لها هيبة في أعين المتربصين بها، من خوارج، وعباسيين، وشيعة.

فاجتمع آل البيت من هواشم وعباسيين وعلويين، وبايعوا سرًّا محمد بن عبد الله بن الحسن (المُثَنّى) بن الحسن بن علي، المعروف بالنَّفْسِ الزَّكيَّة[32]، وقد مثّل العباسيين في هذا الاجتماع أبو جعفر المنصور نفسه، الذي يعتبر رأس الدولة العباسية بعد ذلك، حيث بايع في جملة من بايع، ولذلك اعتبر الإمامان أبو حنيفة ومالك أنّ إمامة النَّفْس الزَّكيّة هي إمامة صحيحة؛ لحصول الإجماع حولها، وموقفهما هذا هو الذي سبب لهما الكثير من المتاعب المعروفة في التاريخ، على يد المنصور نفسه[33].

ولكن الذي يعنينا في هذا البحث، هي تلك المذبحة التي وقعت بمكان

---

30) تاريخ الدولة الفاطمية ص 29.

31) من أراد توضيحًا وزيادة شرح، يرجع إلى كتاب ابن خلدون 31/4، والدولة الفاطمية ص 9، وتاريخ التشريع الإسلامي ص 127.

32) النَّفْسُ الزّكيَّة هو من آل البيت، خرج على أبي جعفر المنصور، بعد أن حمل المنصور أهل النفس الزكية إلى العراق مصفّدين، وكان محمدٌ هذا من الذين بايعهم المنصور بالخلافة، قبل تحويلها إلى العباسيين، ولَمّا بلغ إلى المنصور أمر خروج محمد، بعث له الجيش بقيادة عيسى بن محمد، ودارت المعركة بين النفس الزَّكيَّة وجيش المنصور بالمدينة حيث انهزم النفس الزكية، وقتل في رمضان سنة 195 هـ. البداية والنهاية 74/1.

33) تاريخ ابن خلدون 7/4.

يعرف بـ« فجة »، بعد ثلاثة أميال من مكة، وقيل ستة أميال[34]، و لم ينج من هذه المذبحة غير عمه يحيى بن عبد الله صاحب الدَّيْلم، وأخوه إدريس، وهذا الذي يعنينا بالذكر، وهو موضوع بحثنا.

أما الأول فقد استتر له الرشيد بعد ذلك، حيث قيل إنه قتله غيلة بعد ذلك مسمومًا، وأما إدريس فقد انطلق إلى المغرب ليؤسس هناك دولة الأدارسة سنة 176 هـ، التي استمرت إلى سنة 316 هـ، حيث ستزول من طرف نزعة شيعية أخرى، هي النّزعة العُبَيْدية الإسماعيلية[35].

إن تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب يعتبر ثاني انفصال للخلافة الإسلامية، وبداية لاستقلال أطرافها، بعد أن فرّ عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، واستقلّ بها، عَقِب ما لاقاه الأُمويون من تعسّف وظلم فظيعين من طرف بني عمومتهم بني العباس.

الرشيد لا يحلو له هذا الانفصال الذي حصل له في جسم دولته، فبدأ يعد للأشياء عدتها، ويتفنن في ذلك، فقام بمؤامرة للقضاء على هذا الانشطار (الانفصال) الإدريسي، وذلك بتكليف أحد صنائعه بِسُمٍّ أعطاه إياه بعنوان دواء يداوي به أسنانه[36].

وبذلك استطاع الرشيد أن يمكّن بني الأغلب من الاستقلال الداخلي بإفريقية، على أن يدفعوا من خراجها قدرًا معلومًا لخزينة الدولة ببغداد، حيث بقيت إفريقيا شرطيًّا يحمي الحدود الغربية للدولة العباسية، مع نفس

34) المصدر السابق والصفحة.
35) تاريخ ابن خلدون 4/12-18.
36) المصدر السابق 4/8.

النهج الذي سلكه مع الدولة الأموية بالأندلس.

تذكر لنا كتب التاريخ أن أوّل بعثة دعائية شيعية وصلت إفريقيا كانت تتألف من شخصين هما: الحلواني، وأبو سفيان، وكان ذلك سنة 145 هـ، وأتوا بأخبار جديدة على إفريقيا ليزداد الحرص عليها، مع تنفيذ رغباتهم فيها، ونشر دعوتهم بأرضها، حيث قالوا للداعيَيْن: إن المغرب أرضٌ بُور، فاذهبا فاحرثا، حتى يجيء صاحب البذر، فنزل أحدهما بأرض «كُتامَة» ببلدة تُسمّى «مرجنة»، والآخر ببلدة تسمى بـ«سوق الحصار»، حيث لانت لهما قلوب تلك النواحي إلى أن ماتا[37].

بذلك عرف المجتمع المغربي الدعوة الشيعية، وكذلك دعوة الخوارج منذ النصف الأول من القرن الثاني، وبذلك أصبحت الوفود تأتي من آل البيت وغيرهم على أرض إفريقيا، بعدما بدأ التقارب واللقاء في الكثير من المبادئ.

اتصل أبو عبد الله الشيعي بإمام الشيعة الإسماعيلية، وكان قبل هذا الاتصال معتنقًا لمذهب الإمامية الاثني عشرية، حيث أعجب إمام الإسماعيلية بأبي عبد الله الشيعي وإمكانياته العلمية المتوفرة فيه، وأنس منه كفاءة وذكاء، فأوفده إلى اليمن — وهو ابنها وإليها يُنسَب حيث تلقّبه بعض المصادر، وتارة تلقّبه بالشيعي، وأخرى بالصَّنْعاني — فوصلها سنة 278 هـ، حيث اتصل برئيس الدعاة هناك، وهو ابن يوسف النجار، فصحبه بـ«عدن» إلى أن صار من أكبر أصحابه وخاصّته، فقال ابن حوشب لأبي عبد الله الصنعاني: إن أرض كُتامة من المغرب قد حرثها الحلواني، وأبو سفيان، وقد

37) الكامل لابن الأثير 30/8 و31.

ماتا وليس لها غيرك، فبَادِرْ فإنها موطّأةٌ وممهَّدة[38].

فخرج أبو عبد الله إلى إفريقية بعد خروج البعثة الأولى سنة 143 هـ، فذهب إلى الحج، والتقى هناك برجال من كُتامة، واستعمل معهم ذكاءه وحيلته، إلى أن فاز برضاهم وثقتهم، وانطلق معهم إلى إفريقيا، متخذين الصحراء طريقًا، مبتعدين عن عيون الأغالبة، الذين عرفوا بمقدمه، ووصل إلى أرض كُتامة سنة 288 هـ، واستمر أبو عبد الله الشيعي عشر سنوات في التهيؤ من أجل بلوغ الهدف.

رحّب أهل كُتامة بقدوم أبي عبد الله الشيعي، وكادوا يتقاتلون من أجل الفوز بمساكنته؛ لِمَا أظهره من تقوى، وعلمٍ، وفصاحة لسان، وبُعْدِ نظرٍ، ولكن لم يكشف عن هويته، ولا عن عزمه، بل عمل إلى إظهار كثير من الحيل التي تعلّمها وأعدّها لمثل هذه المواقف.

انتشر خبره في القبائل البربرية انتشار النار في الهشيم، وبدأ يحفل بكل تكريم وتمجيد وسط هذه القبائل، وبذلك اطمأنّ هذا المشرقي إلى قلوب هؤلاء الناس، وهم يعتبرونه درة عقدهم، وشيخ حلّهم وترحالهم، كما يقولون: وديع خبرة، ووصل إلى القيروان، وبلغ أميرُها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب 261هـ - 289هـ، فاهتم لهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا، حيث بعث إلى واليه على ميله، فسأله عن أمر أبي عبد الله الشيعي هذا، فصغّر له من شأنه[39]. وكم كان مخطئًا في هذا التصغير.

بعد أن وثق نفسه ووضع أصابعه — كما يقولون — على الزناد، بدأ

38) الكامل لابن الأثير 30/8-31.
39) المصدر السابق 33/8.

أبو عبد الله الشيعي في تطوير دعوته، حتى سمى نفسه بصاحب البذر، إشارة إلى ما وصّت به البعثة الأولى: «فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر»[40].

بدأت المواجهة بين الأغالبة مع أبي عبد الله الشيعي وجهًا لوجه في أرض إفريقيا، وأخذت المعارك بين الجانبين تدور رحاها ما بين منهزم أبي عبد الله الشيعي ومنتصر الأغالبة في المراحل الأولى من المعارك، ومع ذلك تلعب الخيانة دورًا خطيرًا، وتغيّر مجرى الحوادث، حيث يقتل زيادةُ الله والده أبا العباس غِيلَةً، لشدّته عليه وسجْنه في إدمانه للخمر، بل وصل به المطاف إلى قتل عمه الأحول وكل أقاربه الذين يخشى منهم على ملكه، ففرح وسُرَّ كثيرا أبو عبد الله الشيعي بهذا الصنيع؛ لأنه كان يدرك أن الذي يحول بينه وبين القيروان هو جيش الأغالبة بقيادة الأحول الأغلبيّ، وقد جاءته هذه الأخبار السارة وهو معتصم بجبل «إِنْكِجان»، حيث ابتنى بها دارًا للهجرة، وكان اعتصامه هذا إثر هزيمته أمام الأحول في مدينة «ميلة»[41]، وكان لتشتيت عائلة بني الأغلب دور كبير في إسقاطها على يد أميرها، فقد كان لبعض وزرائهم ميولات شيعية جعلت منهم عيونًا لأبي عبد الله الشيعي، يرصدون له كل أعمال الدولة، إذ يسرّهم انهزام الأغالبة وانتصار العبيدين، مع الانحطاط الخُلُقيّ لزيادة الله، وتمتع أبي عبد الله الشيعي بالحالة النفسية العالية، التي أتاحت الفرصة أمام جيشه، فتساقطت أطراف الإمارة الأغلبية ومدنها، تساقط أوراق الشجر في فصل الخريف.

---

40) المصدر السابق والصفحة.

41) الكامل لابن الأثير 8/34-35.

بعد أن أصبح الجو ملائمًا له (أبو عبد الله الشيعي) زاد في ضغطه، ومكثّفًا لحربه النفسية، مدمِّرًا بذلك أمراء الأغالبة وجيشهم، حتى أصبح يقول: «إن المهدي يخرج في هذه الأيام، ويملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إليَّ وأطاعني»[42].

طلب أبو عبد الله الشيعي إمامه ودعاه لِلُّحوقِ به في إفريقية، وهو عُبَيْد الله المهدي، بعد أن أصبحت الشيعة هي صاحبة الكلمة العليا على كل الأراضي الواقعة غرب القيروان.

لم يتردد عبد الله المهدي في اللحاق بصاحبه، وأخذ يحزم متاعه وأغراضه للسفر إلى إفريقيا، بعد أن أشاع بين الناس بحمص أن وجهته اليمن، وذلك كله من أجل الإفلات مع من كان معه في رحلته هذه من قبضة بني العباس، فجمع بعض أصحابه وابنه أبو القاسم، وأبو العباس أخو أبي عبيد الله الشيعي وساروا، ولكنه سير مرعب ومخيف، ولو قبض عليه بنو العباس لكلفه حياته، ولكن بعد ذلك المسير المزعج المرتعش تمكن من الوصول إلى سِجِلْماسَة[43]، ويقول المؤرخون إن مسيرته قد أفصحت عن ذكاء سياسي منقطع النظير، إذ سلك الطريق الصحراوي مبتعدًا — بقدر الإمكان — عن الطريق المعتادة المسلك، خوفًا من الوقوع في قبضة الأغالبة، حيث مر بقَسْطِيلِيَة، ولم يمكث بها، ومنها — كما قلت — سِجِلْماسَة، ولمزيد من التغطية على نفسه، بعث بأبي العباس إلى القيروان في زِيّ تاجر من التجار، حيث تم القبض عليه، وأُودِع السجن، ولم يخرج منه إلا بعد

42) المصدر السابق والصفحة.
43) الكامل لابن الأثير 8/36-39.

استيلاء أبي عبد الله الشيعي على القيروان، وصاحب سِجِلْمَاسَة[44] هو اليسع بن مدرار، أهدى له المهدي، فقرّبه اليسع وأمّنه، إلى أن وصلته رسالة من زيادة الله الأغلبي تحذره من المشرقي الوافد عليه، الذي يُدعَى أبا عبد الله الصنعاني، عندئذ قبض عليه وأودعه السجن مع ابنه أبي القاسم، ولم يخرجا إلا بعد أن فك أغلالَهما أبو عبد الله الشيعي[45].

واصل أبو عبد الله الشيعي هجماته المنتصرة، مع تكثيفه للحروب النفسية بواسطة الدعاية، واختار لها أُناس أَكْفَاء، ينقلون تعليماته انطلاقًا من دار الهجرة بإنكِجان، بينما الأمير الأغلبي زيادة الله في تراجع، فقد أكثر من الشرب حتى بلغ حدّ الإدمان، بينما صاحبه الآخر كان نجمًا في أُفُول، وبذلك انهار البيت الأغلبي بانهماكه في الملذات[46]، مع تركه الحبل على الغارب، فارتخى أمام الزحف الشيعي، الذي بدأ يدق أبواب القيروان.

إذًا نرى عدوّين متحاربين، أحدهما يسعى للنصر، والآخر يسعى للهزيمة، أحدهما جاء شريدًا طريدًا إلى هذه الأصقاع، حيث أصبح في سنوات معدودة له المكانة والكلمة بإفريقية، بل الرجل الذي ترتعد لذكر اسمه الفرائص، والآخر أصيل القيروان، لكن ما إن يُذكَر اسمه حتى تنطلق

---

44) سِجِلْمَاسَة: قَصَبَةٌ جليلة على نهر بمعزل عنها، شديدة الحر والبرد جميعا، صحيحة الهَوَاء، كثيرة التمور والأعناب والفواكه والحبوب، كثيرة الغرباء، وهم أهل سُنّة، بها علماء، ولنسائهم يُدٌ صناع في غزل الصوف، وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالا، ولأهلها جرأة على دخولها (أي غانا). ياقوت مادة (سجلماسة)، المقدسي ص 231.

45) المصدر السابق 39/8.

46) الكامل لابن الأثير 42/8-43.

النكات على سفاسفه، إنها النهاية لدولة طال عمرها الذي تجاوز المائة سنة، بل تزيد عليها اثنا عشر عامًا.

أمام هذه المستجدات انهزم الجيش الأغلبي بقيادة إبراهيم بن الأغلب هزيمة نكراء، ورجع بجيشه إلى القيروان، فوجد زيادة الله قد غادرها على عجل فارًّا بأهله وأمواله إلى مصر، ليموت بعد ذلك في الرَّمْلَة بأرض فلسطين[47]، وقد حاول إبراهيم بن الأغلب الثبات، لكن أهل القيروان طردوه وشرّدوه، فالتحق بابن عمّه الذي حاول قتله في الطريق، إلا أنّه فرّ منه ليوقع بينه وبين صاحب مصر من قِبَل بني العباس.

انتشر خبر فرار زيادة الله إلى أبي عبد الله الشيعي، فأسرع الخطى إلى القيروان، التي خرجت لاستقباله، فأمّنها، ودخل «رَقّادة» سنة 296هـ[48]، ونادى بالأمان، ولَمّا كانت الجمعة أمر خطباء المساجد برَقّادة والقيروان أن يخطبوا ولا يذكروا أحدًا.

إنه الذكاء السياسي الذي جعل من هذا الشريد الطريد رجل الساعة في القيروان في ذلك الوقت، حيث ضرب السكّة، وبعث الولاة إلى الجهات، وأقبل على تركيز أسس الدولة وإقامة هياكلها[49]، ولَمّا تم له ذلك استخلف أخاه أبا العباس وأبا زاكي عليها، حيث فعلا الأعاجيب بعلماء أهل السنّة، أما هو فقد ذهب إلى سِجِلْمَاسَة لتحرير سيده عبيد الله المهدي من ربق السجن.

47) المصدر السابق 8/22-23.
48) الكامل لابن الأثير 8/40.
49) الكامل لابن الأثير 8/47.

وكان لذكائه دور كبير في ملاطفاته لليسع مرارًا على إبقاء حياة عبيد الله وابنه، ولكن حينما سدت الطرق، وقفلت الأفواه، ولم يجد طريقا آخر، هجم على سِجِلْماسَة، وتمكّن من تحرير المسجونين، بعد أن فرّ اليسع بن مدرار السُنّي صاحب سجلماسة، وقد تم القضاء على إمارة بني مدرار التي امتد عمرها 130 سنة، وعاد المسجونين ومن معهم إلى إفريقية، فوصلوا رَقّادة سنة 297 هـ.

وأما أول أعمال عبيد الله العلوي فأمر بذكر اسمه على المنابر، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وجلس بعد أداء الجمعة ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى اعتناق المذهب الشيعي، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبَى حُبِس، فلم يدخل مذهبهم إلا بعض الناس، وقتل كثير ممن لم يوافقوه على قولهم[50].

فقد ردَّ عليه علماء القيروان ردًّا عنيفًا، مثل العنف الذي مارسه عُبَيْد الله مع من رفض الدخول في نِحْلَتِه، فقد ذكروا أن جبلة بن حمود (ت 297هـ) قد حضر أول جمعة خطب فيها عبيد الله المهدي في القيروان، فلما سمع خطبته نهض قائمًا وكشف عن رأسه حتى رآه الناس، وخرج يمشي إلى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد ذلك[51].

وورد عن جبلة أنه لَمّا بلغه نزول عبيد الله المهدي رَقّادة ترك سكنى الرباط ونزل القيروان، فكُلِّم في ذلك فقال: «كنا نحرس عدوًّا بيننا وبينه

50) الكامل لابن الأثير 49/8.
51) معالم الإيمان 273/2.

البحر، والآن حلّ العدو بساحتنا، وهو أشدّ علينا من ذلك»، وكان يقول أيضا: «جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك»[52].

الموقف الذي وقفه جبلة بن حمود موقف إسلامي رفيع، يدلّ على مكانة حياته العلمية في نصوص الشريعة الإسلامية، ومناداته لجهاد هؤلاء الكفار الذين عاثوا في الأرض فسادًا، ومع ذلك فإن هذا الموقف وقفه أغلب علماء القيروان، حتى إن بعضهم قد وقع إعدامه، كما هو الحال لابن البرذون، وابن هذيل، لَمّا وصلا إليه وجداه على سرير ملكه، وعن يمينه أبي عبد الله الشيعي، وعن يسار أبي العباس أخيه، فلما وقفا بين يديه، قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس: اشهدا أن هذا رسول الله – وأشارا إلى عُبَيْد الله – فقالا جميعًا بلفظ واحد: والذي لا إله إلا هو، لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يسار يقولان إنه رسول الله، ما قلنا إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمر عبيد الله بذبحهما جميعًا، وأمر بربطهما إلى أذناب البغال[53].

القصد من هذا العمل الشنيع استسلام بقية الناس، والإذعان للسلطة الحاكمة، ولكن وصل إلى ما وصل إليه، حيث انتقل من أهل السنّة بالقيروان إلى الولايات الأخرى من داخل إفريقية نفسها، نتد أُكرِه أهل طرابلس على التشيّع، وحُمِلُوا عليه[54]، غير أن هذا التعسّف لم يزد أهل السنّة إلا ثباتا على عقيدتهم، بل دفعهم إلى مقاطعة مساجدهم، ورفض

52) نفس المصدر والصفحة.
53) معالم الإيمان 263/2.
54) معالم الإيمان 265/2.

الصلاة على موتاهم، ولا داعي لتفاصيل ذلك مما يضيق المجال لذكره.

بعد أن قامت هذه الدولة، ووضعت أسسها على جسور من الدماء الزكية الطاهرة المسلمة، بدأوا يتآمرون على أنفسهم، وتصفية بعضهم بعضًا، حيث طلب عبيد الله المهدي بتصفية عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس، عندما ظهرت منهما بوادر تدل على تآمرهما عليه، وكذلك لاقى أبو زاكي نفس المصير بطرابلس، حيث عيّنه واليا، إلا أنه بعث سرًّا لوالي طرابلس يأمره بقتل أبي زاكي، وهكذا يقع لأبي عبيد الله الشيعي ما وقع لأبي مسلم الخراساني[55].

الحياة دائمًا ما بين مدٍّ وجزر، إذ ثارت كُتامة على هذا الظلم القاسي الذي عانى الشعب منه الويل، مما اضطر عبيد الله إلى بعث ابنه أبي القاسم لإخماد ثورتها، وثارت عليه صقلية وتماوت، إلا أنه في كل مرة كان ينتصر.

بدأ النشاط العسكري مكثفًا، وخاصة في هذه المدة ما بين 300-315 في بلاد المغرب، وكانت أغلب هذه الحملات تحت قيادة ابنه أبي القاسم — كما مرّ بنا قبل قليل — وكل ذلك هو سبب تمصير مدينة «المَهْدِيّة»[56] وجعلها عاصمة للفواطم، حيث ابتدأ في بنائها سنة 303،

---

55) الكامل لابن الأثير 52/8.

56) المهدية: مدينة من أعمال تونس، اختطّها المهدي رأس الفاطميين، بينها وبين القيروان مرحلتان، أسسها سنة 300، وفرغ منها سنة 305، وهي على ساحل البحر الأبيض المتوسط داخلة فيه كهيئة كف متصلة بزند، وسوّرها سورًا محكمًا بأبواب من الحديد المصمت، وجلب إليها الماء من قرية على مقربة من المهدية، وجعل لها مرسى يسع ثلاثين مركبًا، وفي المهدية هذه ولد المُعزّ فاتح مصر، ومؤسس القاهرة. انظر: معجم ياقوت في مادة (المهدية).

ويومها قال: «بنيتها لتحتصم بها الفواطم ساعة من نهار. وانتهى من بنائها سنة 306 هـ. ويومها قال: اليوم أمنت على الفواطم»[57].

هِجْرَةٌ من دارٍ إلى دارٍ، ومن موقعٍ إلى آخرَ؛ من اليمن إلى مكة والحجاز، ثم إلى سِجِلْماسَة، وأخيرًا إلى القيروان، وهكذا تدور عجلة الحياة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[58].

توفي أبو عبد الله المهدي سنة 322 هـ، وأوصى بالأمر بعده إلى ابنه أبي القاسم نِزَار، الذي يلقّب بالقاسم بأمر الله 322 هـ[59]، فواصل أعمال أبيه في دعم هياكل الدولة وتوسيع أطرافها، حيث وصلت جيوشه إلى مصر والمغرب، إلا أن في عهده يبرز على المسرح السياسي أبو يزيد الخارجي، الملقّب بصاحب الحمار، وهو أبو يزيد مَخْلَد بن كَيْدَاد، من أهل «قسطيلة» من ضواحي مدينة «تُوزَر» الآن، وُلِدَ بالسودان لأم هوارية، إذ كانت لأبيه تجارة هناك، ثم جاء به إلى «قسطيلة»، حيث حفظ القرآن ودرس علوم عصره، وخالط هناك النكّارية، وهي من طوائف الصفْرية من الخوارج، فمال إلى مذهبهم، ثم ارتحل إلى «تاهرْت» عاصمة الخوارج، التي كان يحكمها بنو رستم، حيث اشتغل في تعليم القرآن، وكان ذلك سنة 296 هـ في زمن وصول أبي عبد الله الشيعي إلى سِجِلْماسَة لفك اعتقال المهدي وابنه من سجنها، ثم انتقل إلى «تقيوس» حيث اشترى ضيعة،

---

57) الكامل لابن الأثير 264/8.
58) إبراهيم من الآية 42.
59) الكامل لابن الأثير 264/8.

واستمر في تعليم القرآن هناك[60].

وكان مذهبه يقوم على تكفير من خالفهم من المسلمين، واستباحة أموالهم وأعراضهم، وبحكم مهنته واتصاله بالناس فقد اشتهر ووجد من الناس من يثق به ويقلده في آرائه منذ أيام المهدي سنة 316 هـ.

ومن جرأته أنه هاجم العبيدين مرات عديدة، خاصة في السنتين 333-334 هـ، ودخل القيروان عدة مرات، وكذلك دخل تونس ورَقّادة، وباجة من أمصار إفريقيا العبيدية، ولم يسعفه الحظ في القضاء على دولة العبيدين وهي لا تزال في خطواتها الأولى.

وعلى الرغم من استمالته شيوخ القيروان من الفقهاء والعلماء، وشاركوا في هجومه على المهدية سنة 333 هـ، إلا أنه تركهم وجهًا لوجه مع قوات العبيدين، وهذه خيانة منه، حيث استشهد منهم في يوم واحد 35 فقيها، زيادة على العامة.

وكذلك ثبت تاريخيا خيانة أبي يزيد الخارجي لمقاتلة أهل القيروان من فقهاء وعامة، حيث مات في دار البحر بالمهدية من حين دخول عُبَيْد الله، إلى تلك السنة المدوّنة في هجومه على المهدية أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عابد وعالم ورجل صالح، ولم يبال أبو يزيد الخارجي في مكره بالقيروانيين، فانسحب من أرض المعركة بجيشه في المهدية، مما أدى إلى سقوطهم، وتخلص منهم، وما كان أبو يزيد الخارجي غير صادق مع أهل القيروان، كان هؤلاء صادقين معه، لأن نِحْلته – على ما فيها – لا تصل إلى حدّ عبادة الأشخاص وتنْزيههم.

60) الكامل لابن الأثير 422/8، وتاريخ ابن خلدون 40/4-44.

والله ليس بغافل عما فعل أبو يزيد ولا غيره، إذ لم يذهب دم العلماء بوادي المالح هدرًا، حيث انتقم الله من أبي يزيد انتقامًا فظيعًا، سواء في هزيمته بالمهدية، أو قتله بصورة فظيعة[61].

هذه السنوات المذكورة كانت سنوات رعب وخوف عاشتها القيروان وغيرها، مما ألحق الدمار العمراني، حتى قيل إن جيش صاحب الحمار لم يعد يجد ما ينهب، ففضل العودة إلى قُراه بأعلى الجبل[62]، وما فشل فيه القائم بالله نجح فيه أبناء المنصور، حيث استطاع بشجاعته وجرأته أن يلحق هزيمة نكراء بأبي يزيد الخارجي، ويتركه يموت من جراحه، ثم يأمر بسلخ جلده، وملأه تبنًا ووضعه في قفص أُعِدّ لذلك، مع قردين، نكاية فيه وتشويهًا لسمعته، وإرهابًا لغيره من المتربصين بالفواطم، سنة 336 هـ بقلعة كُتامة[63].

بدأ العلويون استعداداتهم للانتقال إلى مصر بعد سقوط يزيد الخارجي، وخاصة بعد موت المنصور العلوي سنة 341 هـ، وخلفه ابنه المعزّ لدين الله الفاطمي[64]، الذي صالح البربر وأحسن إليهم، فجاؤوه طائعين، ومن أعماله أنه هاجم «ألمرية» من أرض الأندلس سنة 344، مما دفع عبد الرحمن الناصر (ت 350 هـ) إلى مهاجمة سوسة وتخريب مبانيها سنة 345 هـ[65].

---

61) الكامل لابن الأثير 441/3.
62) الكامل لابن الأثير حوادث سنة 334.
63) تاريخ ابن خلدون 40/4، والكامل لابن الأثير 441/8.
64) الكامل لابن الأثير 497/8.
65) تاريخ ابن خلدون 46/4.

بعد الانتصارات الرائعة التي حققها في إفريقيا حوّل اهتمامه بالمشرق، فوجّه جيشه بقيادة جوهر الصقلّي إلى مصر، فدخلها يوم 17 شعبان سنة 356 هـ، حيث أقام الدعوة للمعزّ في شهر شوّال من نفس السنة بالجامع العتيق.

وفي سنة 359 هـ سار جَوْهَر إلى جامع ابن طولون، وأمر المؤذن بأن يضيف إلى الأذان «حي على خير العمل»، ثم أمر ببدء بناء القاهرة المعزّية[66]، ثم تنطلق جيوشه لتستولي على دمشق وغيرها من بلاد الشام.

يقول ابن هانئ في قصيدته:

يقول بنو العباس قد فُتِحتْ مصر ... فقل لبني العباس قد قُضِيَ الأمر

وفي سنة 361 كان المُعزّ لدين الله في طريقه إلى مصر، حاملاً معه أموال القيروان وخيرات إفريقية الخضراء، حتى قيل إنه سبك الدنانير على شكل طواحين، وحُمِل كل اثنين منها على بعير، واستعمل على إفريقيا يوسف بن بلكين بن زيري الصّنهاجي الحِمْيَريّ جد الدولة الصنهاجية بعد ذلك[67]، ودخل بذلك المعز القاهرة في رمضان سنة 362 هـ[68].

كان المُعزّ من الروافض، والدليل على ذلك ما قيل أمامه من شعر ناطق بالكفر، متحديا للمشاعر السُّنّية، وقد حوى ديوان ابن هانئ قصائد كثيرة لا يمكن عند سماعها إلا طلب المغفرة لقائلها. من ذلك قوله:

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدار ... فاحكم فأنتَ الواحدُ القهّار

66) الكامل لابن الأثير 590/8.
67) الكامل لابن الأثير 627/8.
68) الكامل لابن الأثير 622/8.

فكأنما أنتَ الرسول محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصار[69]

أو قوله:

حل برَقّادة المسيح حلّ آدمٌ ونوحْ
حلّ بها الله ذو المعالي فكلّ شيءٍ سواه ريح

انتقل الفواطم إلى مصر، وخفّ ضغط الرافضة على إفريقية، إلا أن حياة المعز لم تدم طويلاً بمصر، فمات سنة 365 هـ، فخلفه ابنه العزيز، الذي بدأت إفريقية في عهده تتحرك، وخاصة أن قادتها الجدد هم من البربر، وهم أبعد الناس على فهم عقائد الروافض[70]، فهم أقرب إلى أهل السنة بفطرتهم منهم إلى غيرهم، ولهذا بدأت إفريقية تزدهر على عهد ابن زيري[71]، فلما أحس العزيز العلوي بوادر هذه النهضة أراد أن يغتالها بليل، وأن يضربها من الخلف، فبعث داعيا سنة 377 هـ إلى كُتامة، يقال له أبو الفهم حسن بن نصر، دعاهم إلى طاعته، وهدفه من وراء ذلك استمالة كتامة خاصة والبربر عامة إليه، والخروج على المنصور الصِّنهاجي، وبذلك يُضعِف العزيز الطرفين، وعندئذ تكون إفريقية طوع بنانه، ولَمّا بلغ ذلك

---

(69) الكامل لابن الأثير 621/8.

(70) وهي عبارة عن خليط من الآراء الهندية والفارسية، والعقائدية اليهودية، والتثليث المسيحي، والأفلاطونية اليونانية.

(71) بنو زيري الصنهاجيون من تونس والجزائر، وأصلهم من البربر، وكانوا عمالا للفاطميين، ولما سار المعزّ إلى مصر استعمل على تونس يوسف بن بُلُكّين، ثم استفحل أمر يوسف واستقل بمملكته، وأسس دولة نسبت إليه، استمرت من سنة 361-542، واشتهر من رجالها باديس بن يوسف، وابنه المعز. ظهر الإسلام 292/1.

المنصور الصنهاجي بعث يُعلِم العزيز بذلك، فكان رده بأن لا يتعرّض لكُتامة، ولا لأبي الفهم، وكان ذلك بواسطة رسولين جاءاه خصيصًى من مصر، ولم يحسنا التصرف، فغضب المنصور من هذا التصرف، وحبس الرسولين طيلة شعبان ورمضان، ولم يتركهما يتصلان بغيره، ثم أقبل يتجهز لحرب كُتامة وأبي الفهم، فانطلق إلى مدينة سطيف عاصمة كُتامة، فقاتلهم وهزمهم هزيمة شنيعة، وقبض على أبي الفهم فضربه ثم قتله وسلخه وأكلت صِنْهاجة لحمه، وتَمّ ذلك في عيد الأضحى، وعين المنصور الصنهاجي وقال له: جئنا من عند شياطين يأكلون الناس.

وفي سنة 386 هـ يتوفى العزيز العلوي ومنصور الصّنهاجي، فيخلف الأول ابنه الحاكم بأمر الله، ويخلف الثاني ابنه باديس.

يعود الاطمئنان والهدوء إلى ربوع إفريقية بعد سفك الدماء والقتل والتخريب والدمار، وفي سنة 406 توفي باديس، ويخلفه ابنه المعزّ، الذي رأى عهده عودة مذهب أهل السنة إلى ما كان عليه قبل العبيديين.

وفي يوم من الأيام من سنة 407 هـ كان المعز بن باديس مارًّا في موكبه بالقيروان شاهد جماعة فسأل عنهم فقيل له: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال: رضي الله عن أبي وعمر، فاعتبر العامة قوله هذا إذنًا لهم بتصفية بقايا الروافض من القيروان وغيرها من أمصار إفريقية، فلاحقوهم قتلا وذبحًا، حتى من احتمى منهم بالمساجد، ولم ينج منهم إلا من عبر الحدود لاحقًا ببني عُبَيْد في مصر، وبذلك تخلّصت القيروان من نِحْلة مدمّرة للقيم والأخلاق العالية التي جاء الإسلام داعيًا بها وآمرًا.

وكأن الرّحى تدور من جديد على إفريقية، وتنقلب الموازين سنة

544 [72]، حينما قطع المعز بن باديس الخطبة على المنابر باسم المستنصر العلوي، وخطب للقائم العباسي، ولَمّا علم المستنصر العلوي بدأ يهدد ويتوعد المعزّ بن باديس، فأغلظ المعزّ في الجواب، وعندئذ لم يجد العلوي ما ينتقم به من إفريقية السنية سوى أن يرميها ببني هلال.

وفي سنة 446 هـ حاصر بنو هلال القيروان، وعلى الرغم من إحسان المعزّ إليهم – أي إلى القيروانيين – كتب المستنصر العلوي رسالة إلى المعزّ قبيل وصول بني هلال إلى إفريقية، جاء فيها: «أما بعد. فقد أرسلنا إليكم خيولاً، وحملنا عليها رجالاً فحولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً»[73].

وإن انتصر بنو هلال على جيش المعز، إلا أن ذلك لم ينقص من بطولته، ولم يمس من كرامته، مصداق ذلك ما قال أحد شعراء ذلك الزمان[74]:

وإن ابن باديس لأفضل مالك ولكنْ لعمري ما لديه رجال
ثلاثون ألفًا منهمُ غلبتهُمُ ثلاثة آلاف إنّ ذا لَمُحال

هذه صورة موجزة لِمَا كانت عليه إفريقية طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين، بقطع النظر عما سبق سنة 288 هـ من أحداث، وما جاء بعد القرن الرابع من أحداث، فإن حالة الاضطراب لم تكن خاصة بالقيروان، ولا إفريقية، بل كانت عامة في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي.

72) الكامل لابن الأثير 566/9.
73) الكامل لابن الأثير 566/9.
74) الكامل لابن الأثير 568/9.